

الفزعة

قصة بقلم منى عبدالفضيل

السبت .. الاحد .. الاثنين .. حتى نصطدم بيوم الجمعة ، وترمش العيون ، تكاد تستيقظ .. وتنتوقف ، ثم تعود من جديد : السبت .. الاحد .. الاثنين ..

كل يوم كانت العربية الميكروباس تنهب بنا الطريق ، يهتز صندوقها فوق اطاراتها العارية النشطة ، وتفرقع ابوابها ونوافذها التي لا يمكن احكامها ، وتبتلع الفرقة صوت المحرك ، أو يبتلع المحرك صوت الفرقة ، المهم انها تهتز : صوت غير محدد لم يعد له وجود في اسماعنا . فنحن نتبادل الحديث بوضوح ، يدهش له كل قادم جديد لركوب العربية ..

كانت العربية مخصصة للاسعاف ، وعندما لم تعد تصلح اعطوها لنا ، لتنتقلنا كل يوم ، من المدينة الى النجبل . ورغم انبعاث الظهـر والجانبين ، والعوارث القائمة كالكدمات على الصبح الرقيق ، فقد كانت العربية تنهب الارض كل يوم الى المحطة .. اربعون كيلو في الصباح ومثلها في المساء .. دون توقف أو اعطال .

كنا نرص خمسة على كل اريكة والوجوه تقابل الوجوه ، وكل يحفظ مكانه . ومع التكرار بدا كل شيء ينطسوي ويستوي ويصبح عاديا .. الاشجار تتعلق بها العيون تكاد لا تراها ، وجانب الطريق في ركن العين شريط أسود طويل .. وعلبة السجائر التي يشتريها الخبير الروسي كل يوم عند قرية البرجاية ، والناس المتناثرون على الطريق الشمس يشيرون للعربة ولا تتوقف لهم ، حتى ارتجاج المقعد الصلب مع مطبات الطريق ، كدنا نحفظها ..

الامر الذي لم نعتده أبدا ، أو نفقد حماسنا له ، هو مداعبة منير . كان مكانه عند طرف المقعد اليمين عند الباب ، وكان يأتي مبكرا فيأخذ هذا المكان ويترك باقي المقعد الى الداخل خاليا ، وعند وصول الباقيين يتعشرون به ، ويرددون كل بدوره عبارة واحدة :

– يا أخي ما تخش لوجه ..

وهو لا يرد وهم لا يكررون الطلب ، ونهار العربية يبدأ بهذه الكلمات . كانه شريط مسجل يدور بفتح الباب .. وعندما نستقبر يستمر الشريط :

– أزيك يا منير ..

– يعني وحشتك ..

– طب صوصو شويه ..

– دمك خفيف .. جنبها داهية اللي عايزه خلف ..

وتضح العربية بالضحك ، ويضحك هو أيضا .. ويسأله احدهم في جد :

– الا صحيح يا منير .. انت بتعرف تكلم العصافير ؟..

– يا ريت .. كانوا وفروا علي كلام اللي زيك ..

وتعلو الضحكات من جديد ، وتكرر مع كل كلمة ينطقها منير ، حتى تلك الكلمات العادية تماما ، كانت تنبعث ضحكات واهنة ..

لم تكن اجابات منير واحاديثه يعوزها الذكاء ، ولكن العيب كان في صوته الغريب . كان رقيقا مهتزا ، لا يعلو لحد السرعة ولا يهبط الى الخفوت ، وانما يصدر من قاع الحلق ويفقد السيطرة عليه بمجرد ذلك ، فيأتي مسلخا متقطعا غريبا ، الصوصوه أدق وصف له ..

وكان من الصعب ادراك ما يدور في رأس منير عندما تنطلق

الضحكات ، هل يتقبل المسألة على انها مداعبات من اصدقاء هو أمفرهم سنا ، أم انها سخرية يسلم لها كامر واقع لا حيلة له فيه ؟ وكان من النادر أن يعبر وجهه عن احساس ما ، فهو وجه ساكن أملس .. أبيض صغير ، وأنفه الاحمر بارز بشكل ملحوظ ، يسقط ظله على فم دقيق كالخيوط ، وعيناه واسعتان تانهاتان ، وجبهته عالية تصلح لطالب مجد ..

وذات يوم نجحوا في اثارته .. كان كل شيء يمضي عاديا .. عندما اندفع واحد – عقب موجة من الضحك – يقول :

– هي خطيتك بتفهم في الصوصوه يا منير ؟

وصمت هو ، وثبت عيناه الى الامام ، وزم فمه الدقيق ، واحمر وجهه ، واستمر ينظر الينا بثبات مخيف ، ولم نضحك ، لم نستطع أن نضحك .. وبعد فترة أرخى وجهه وأراح عينيه وظل على صمته ، وكان هذا كل غضبته . ومضت أيام قبل أن نعاود مداعبته ، ولكن احدا لم يجرؤ أبدا على ذكر خطيئته . ومضت أيام أخرى ومرت مصادفة قرب بيته ، ولحني وجرى خلفي . وأصر على الصعود معه ، كان يقبض على يدي بقوة ، ويرجو بكلمات مرتبكة يكملها صوته الغريب توسلات . كان كمن يقبض على فرصة لا يريد أن يفلتها . وذهبت معه . اندفع أمامي بخطوات سريعة جادة وسرواله يعلو حذاه كاشفا بداية ساقبيه الرفيعتين . وتوالت دقائقه على الباب .. وغاب لحظات وعاد يسحبني من يدي .. دخلنا حجرة جلوس صغيرة وأنيقة ، وعلى الحائط كانت لوحة لمطاردة غزال والافق فيها يعيسد مريح .. وغاب في الداخل مرة أخرى . وعاد وفي يده فتاة ، قدمها لي بنفس الصوت الغريب :

– دي بقه .. تبقى خطيئتي ..

كانت فتاة صغيرة ، أصفر من أن تكون خطيئة لاي أحد . كانت تشبه منير كثيرا .. ورغم ذلك تبدو جميلة .. كان لها نفس الوجه الابيض والانف الاحمر الكبير والفم الدقيق كالخيوط والجهة البارزة . ولكنها جميلة بشكل أخاذ ، ولم يكن منير جميلا على الاطلاق ، وظلت هذه المسألة تحيرني فترة طويلة .

وجلست الى جواره على نفس الاريكة ، وقدم هو علبة الحلوى ، وعندما مدت يدها لتأخذ واحدة أبعدها عنها بحركة لطيفة ، أدهاها باتقان بالغ ، وبشكل محبب . ومدت هي يدها فقبضت على معصمه وأخذت بالآخرى قطعة الحلوى ، وهو يضحك مستسلما . كانت تحبه .. وكانت عيناه صريحتين ، وجهها متدافقا لا تريد أن تحجبه ولا يهمها أن تلعنه .. وعندما خرجا كانا يتدافمان نحو الباب وقد ارتبكت خطواتهما . وساعتها أدركت تماما سر غضبته في ذلك اليوم .

لعلي لم أخبركم بعد بالحديث عنه ، فالواقع أن هناك مناسبة لهذا الحديث ، أن لي أن أكشفها .

دلفت العربية مسرعة من باب المحطة الكبير ، ودارت مع الطريق واستقرت أمام مبنى الادارة ..

ودبت الحركة في المحطة كالعادة ، عقب وصول العربية . كركر الونش الكبير واختنق بدخان أسود كثيف قبل أن ينطلق قويا هادرا ، يحرك ذراعه في كل اتجاه كفيل ضخم .. وماكينته الديزل في الورشة تحركت بجذبة واحدة لذراع الشفيل ، وقفزت المؤشرات تعلن الفولت والذبذبة والامبير وانطلقت وراءها ماكينات الورش .. وانساب

نام العازل على الزلط ، في صفيين متوازيين ، وأحكمت المسافة بينهما بقطعيتين من الحديد . كان منير يتحرك كالثقل في كل مكان ، يسلم المفاتيح لكل من يحتاج ، لاحكام الربط . وعندما يسلم المفتاح لواحد من الروس ، كان يقول نفس العبارة التي يقولها كل العراب وكل الروس :

– ممكن ماشي .. ماشي ..
– ممكن ..

يقولها الروسي بابتسامة ، وينظر منير في وجهه كأنه يبحث عن مصدرها ، ولكن الابتسامة تنتقل اليه ، ويعود بها يجهز ما يسأل للخضوة التالية ..

وانهمك أحد العاملين في ربط الحبل الكتان حول الماسك الصلب ، والروسي يحرك مجموعة الاطباق ليطمئن على ثباتها ، والرجل الجالس في الجرار بدأ يساوره القلق .. ولكن الاشارة بالحركة آتته أخيرا ، واستعد الثلاثة الرابضون بأعلى البرج .. وابتعد الجميع عن العازل الراقذ على الارض باطمئنان ، يفسحون له الطريق وتحرك الجرار .. مترا .. مترين .. ثلاثة أمتار .. ابتلعت الارتخاء في السلك وتوتر السلك واشتد .. واستقام ، وتحرك العازل على الارض ، ترك الزلط وأصبح معلقا في الفضاء ، وتحرك قليلا كأنه يتمطى وبدأ يرتفع في جلال . مع كل خطوة للجرار يرتفع ، والعيون معلقة لا تحيد .. والقلوب واجفة .. وهو يعلو في خطو هاديء رزين ، بني لامع تنزلق عليه أشعة الشمس فلا تترك من صفارها اثرا ، ومنير ترك أدواته وعلق بصره .. والذين يسيرون على البعد تطلعت أبصارهم ولا أحد يستطيع أن ينزع البصر عن هذا الهاديء المعلق في الهواء كملك مطمئن على عرشه . عشرات العوازل رفعت مسن قبل ، ولكن لكل رفعة جديدة ، فرحة خاصة . فرحة بالاحكام والدقة ، بخروج الرسم من خطوطه على الورق الى الحياة .. البهجة بأبناات الفكرة باليقين .. عندما يستقر العازل في مكانه ، دون ارتخاء السلك أو توقف الجرار ، أو سقوط طبق .. أو تردد انسان عن جذب الطرف واسقاطه في الخية . والعازل ما زال يرتفع ، والرؤوس انطرحت الى الخلف ، تواجه الشمس ولا ترى الا الاطباق المبنية ، التي بدأت تبعد وتضغر وتتحول الى دوائر صغيرة .. ووصل العازل وتوقف الجرار في اللحظة المهيمة .. وامنتد الايدي تجذب الطرف وتسقطه في الخية . الاحكام واليقين .. والفرح . وارتخى السلك وظل العازل معلقا ، لقد تم كل شيء .. انتهى الرفع في كل حوش الخمسمائة كيلوفولت ، ولم يبق الا اعلان النبا .. اعندلت الرؤوس وقال واحد من العاملين :

– الحمد لله .. الاخير ركب ..

ورددها الروسي بلكنته الاجنبية ، وقال منير ضاحكا ، آخر كلامه :

– كل سنة وانت طيب .. يا مستر ساشا ..
– أنا مش عارف ..
قالها الروسي وابتسم ..

القابعون فوق البرج يفكون الماسك الصلب .. ليدلوه من الحبل الذي أعد لذلك .. وبعدها يبقى العازل في مكانه ، ربما الى الابد . الايدي نشطة تفك المسمار عن الماسك .. المسمار الاول .. والثاني .. والثالث .. وفجأة سقط .. سقط الماسك بكل ثقله .. لكنه لم يصل الى الارض .. ظل يترجح في الهواء ويضرب طرف الحبل بوحشية ، على حديد البرج ، وتطلعت العيون مرة أخرى .. والصراع غريب مخيف بين الحبل وقطعة الصلب الثائرة ، بعد أن فك اسارها ، الحبل منكمش يرتعد على طرف البرج ، ولكنه يقاوم ، وقطعة الصلب تهجم في كراهية واصرار ، وتنازح وتعود تضرب بفيظ ، تنقض في نفس المكان . وتهاوى الحبل ، وتفتتت جدائله ، قطعة الحديد لا تتوقف ، والشواني تمر بطيئة ، تهبط بالخوف على كل شيء .. ولا أحد يستطيع أن يغير

الاصوات تتداخل وتندرج تحت نغمة واحدة ، أصبحت معتادة كل صباح ، وأي انقاص فيها يعني ان جزءا من المحطة قد تعطل . وجاء السائقون يكتبون أوامر التشغيل ، وتحرك الصناديق الضخمة على عرباتهم الى الداخل ، مئات الاطنان كل يوم تمر من البوابة الضخمة . وفي كل مرة يفكر حمدان ، خير البسوبة ، التصير البدن ، ان يستوقف العربة ويسأل الى أين ، ولكنه يتردد ولا يجرؤ على السؤال ، حتى أصبح وجوده على البوابة مثل عدمه ، وانما هو أحد معالمها ، لا تكتمل حصانتها الا به .

وكان ثمة ما يعكر الصفو مع بداية ذلك النهار ، فقد تجمع العمالون لا يريدون العمل لان أجورهم لم تصرف منذ عشرين يوما .. والمتالون في المحطة يأتون من النجوع والكفور المتناثرة على حواف الجبل ، يأتون بشياهم المتربسة ووجوههم المظفة بالشعر وعيونهم الذابلة ، لا يكادون يدركون من أمر الحياة شيئا ، وعندما لا يقبضون في الوقت المناسب يضربون .. سبحانه الله .. لكنه على أي حال اضراب من نوع لطيف ، ينتظر كلمة طيبة حتى ينفض .. وكان الوعد يدفع الاجر ملاذا لهم ، هرولوا بعده الى العمل .. كانوا هم أيضا يعبونه . الذين يعملون في التركيبات ، بعيدا حيث الرمل يحور ، بأسرهم العمل . كل يوم تقوم أبراج جديدة ، وتثبت عوازل ومحولات ومفاتيح وعشرات الاشياء .. الصحراء الراقدة في صمت أذلي تتحرك وتقوم عليها حياة ، الالوان البنية والفضية والسوداء تندمج وتقيم في الجبل فرحا .. الاسلاك الراقدة فوق الابراج شرائط لامعة تنساب في ثوب عرس كبير . ومئات العيون تعيش في الجبل لا تغادره ، تنابع الخلق الجديد كل يوم وتفرح .. والسذين يقعدهم المرض حزاني ، والماننون من اجازات يجرون في لهفة .. ولا أحد يجلس .. مسن بين مئات الذين يعملون في الموقع لا أحد يجلس .. ملاحظة لا يدركها الا غريب ، يجد لحظة للتوقف والمشاهدة ..

ومنير واحد من الفرحين .. يسير بسرواله القصير الذي يفصح عن بداية ساقيه الرفيعتين .. وعينيه الكبيرتين التائنتين في تساؤل دائم ، وبسمة مستلقية بين شفثيه الرقيقيتين . كان يسير حاملا مجموعة من المفاتيح مختلفة المقاسات . وكانت مهمته في ذلك اليوم ، اعداد الادوات اللازمة لرفع عوازل أبراج محطة الخمسمائة كيلوفولت وكان اليوم هو آخر أيام الرفع . وعندما رأي تقدم مباشرة ناحيتي ، وبصوته الرفيع كالصوصة قال :

– أنا عايز أسيب الشغلانة دي ..

– ليه يا منير ؟

– بياخدوا العدة وميرجهاش ..

– طيب يا أخي النهار ده آخر يوم في رفع العوازل ..

– مهو عشان كده عايز ألم العده ..

– طيب آخر النهار هات كشف باللي ناقص ..

ومضى راضيا ، ينقر الارض بسرعة ، وفي ظهره انحناءة خفيفة

لا تناسب سنواته العشرين ..

وفي حوش الخمسمائة كيلوفولت ، كانت الارض مفروشة بالزلط والشمس قامت عليها ترشها بأشعتها الساخنة ، وفي الانفراجات بين قطع الزلط يندس الظل ، ويتصاعد الصيهد يلتهم الوجوه . ويسدور حول اطارات نظارات الشمس ويهجم على العيون .. والبرج الاخير يقوم على الارض بسبقاته الابيع المتباعدة ، وفي اعتداد خفير نظامي لا يعرف شيئا الا الوقوف . وفي الناحية الاخرى يقوم البرج الثاني ، والمعاير يصل بينهما فتكون معا بوابة ضخمة مزدانة باطنان من الزوايا والمسامر .. ولم يبق الا عازل واحد ، أعد كل ما يحتاجه للرفع . رصت أطباق الصيني البنية متتالية ، وكونت السلسلة الطويلة ذات الثلاثة عشر طبقا ، ووقف الجرار متحفظا ، ليشد السلك فوق البكرة المعلقة في أعلى البرج . ومهما علق ثلاثة من العاملين كانت مهمتهم شبك العازل عند وصوله الى أعلى .

من الامر او يوقفه او حتى يتحرك ، لا معنى للحركة الآن . لقد انحراف المسار ، ولم يصل الاحكام مدها ، وقطعة الحديد سوف تنقص في أي لحظة على أي مكان ، والحركة قد تعني الموت أو تعني النجاة .. والوقوف يعني نفس الشيء .. والعذاب في الانتظار . انهار الجبل مع الضربة الاخيرة وطار الماسك واستقر فوق رأس منير .. وتوقف الانتظار . نقطة سوداء في دائرة الاحكام تتسع وتنتشر وتحجب كل شيء .. عندما نفقد الانسان ، هل نفقد معه قيمة محددة ؟ فكرة غريبة تدهننا بالخوف ، ولو استمرت لحظات لدمرتنا كزلزال .. الانسان قيمة غير محددة .. ويعود كل شيء الى الاستقرار . الماسك استقر فوق مؤخرة الرأس .. والشعر الاصفر الخفيف اختفى في نافورة الدم . وصرخ واحد من الواقفين . ولكن منير انكفا بلا صرخة او نداء .. وسكن دون حراك ، والدم يجف على الزلط الساخن ويصير الى الدكنة .. والفزع ينشر على كل شيء .. سماء المحطة مغطاة بالطوايط السود ، ومن نقطة السقوط بدأ الجري في كل اتجاه .. كم هو مفزع جري الرجال بالخوف والحزن .. وعدوى الجري تسري كالوباء .. وفي لحظة اصبح كل ما في المحطة يجري .

وجاءت من الداخل عربة الاسعاف ، والسريفة المزعجة تنفخ الموت .. واستقر منير على النقالة ، عينه نصف مغلقة لا ينظر الى شيء . ولكنه لم يمض بعد .. والعربة تجري تستجدي شيئا ما .. وتوقف جري الرجال والسكون عاد .. دوائر راكدة في جنبات المحطة ، وبقع الدم داكنة كالظلال المندسة في الفجوات .. وكل الماكينات توقفت .. لم تبق الا ماكينة الديزل الرئيسية يتدافع العادم منها في رتابة نائحة .. والحلقات تتجمع حول مبنى الادارة .. العيون منكسة فوق الاسفلت الاسود ، والاسفلت الاسود لين ساخن ، تحت الشمس الجائمة فوقه . ويأتي واحد من الخارج يلقي سؤالا ولا يسمع ردا وينضم لدائرة الصمت . وتتسع الدائرة .. ويستقر الحزن مكسورا

تقيلا في قاع القلب .. وصوت منير القريب يتصاعد في الرؤوس وتدور صورته مع كل الخيالات .. وتتوابع الاحداث الصغيرة بلا رابط .. والعربة اخذته الى المدينة ، والمسدينة على مسيرة نصف ساعة .. والجبل مقطوع ، والكدر والخوف والحزن شحم لزج يلتف حول الرقاب ويسيل على الظهر والصدر ويفشى العيون .. وتتداسى الاحزان ويتسرب الى النفوس ملل قائم ويهدم كل شيء .

وتندفع من البوابة عربة . وتدور على الطريق وتستقر امام مبنى الادارة .. ويفتح الباب بسرعة ، ويخرج من العربة قادم من المدينة . مخلوق بدين متحضر ، ولكنه يكشف فجأة ان ليس لديه ما يقوله .. وعندما تتمسح به العيون مستطلعة يقول في بلاهة :

- ربنا يستر ..

وفي نفس اللحظة بالتقريب ، كان منير قد مات .. كان يرقد وحيدا بحجرة في الدور الاعلى بها ثلاثة أسرة .. مغطى ببطانية قاتمة ، وعيناه نصف مغلقتين وهو لا ينظر الى شيء . وكان فمه مفتوحا بالطريقة نفسها التي تجبره عليها جيوبه الانفية . وبدا كأنه نائم .. واروقة المستشفى ممتمة وخالية تماما ، فقد كانت ساعة الفداء ..

وفي حجرة منزوية كانت هناك .. وجه منير الجميل ... تبكي في صمت مع سيدة بدينة . ولم استطع ان انظر اليها .. وبعد الظهر حمل منير الى بلدته ..

وبعد الظهر عادت العربة الميكروباس تنهب الارض .. كان كل واحد في مكانه .. وئمة فراغ على طرف المقعد الايمن .. لم يتركه احد عن عمد .. ربما بحكم العادة فقط .. وطوال الطريق ، لم تسمع في العربة كلمة واحدة .

حسني عبد الفضيل

القاهرة

الوحدة العربية آتية ! للمؤرخ البريطاني الشهير ارنولد توينبي

عرف المؤرخ البريطاني الشهير ارنولد توينبي بتعاطفه مع العرب وتأييده لقضاياهم . وان مواقفه من اسرائيل وعدوانيتها وعنصريتها لا تزال في الازهان .

وفي هذا الكتاب يتنبأ توينبي بان الوحدة العربية لن تستغرق من الزمن حتى تتحقق ما استغرقته الوحدة الالمانية والوحدة الإيطالية ، ولن تنحرف مثلها ، بل ان سنة ١٩٧٤ هي الحد الاقصى (كما يقول توينبي) لاشراق نور هذه الوحدة العربية .

ويتحدث المؤرخ البريطاني عن العقبات التي تعترض الوحدة العربية والوحدة الافريقية ، ولكنه يؤكد ان هذه العقبات ، ومنها مصالح بعض الافراد والاسر المستفيدة من التجزئة ، ستزول تدريجيا ، وان الوحدة العربية قادمة قريبا وويل لمن تعميه مصلحته الموقته من ابنائها عن الحق ، وويل اكثر لمن يقف في طريقها ، معاداة للخير ، من غير ابنائها ...

وفي هذا الكتاب الممتع تأملات تاريخية طافت بذهن توينبي اثناء رحلاته الثلاث الى بلدان افريقية ، شمالي وجنوبي الصحراء الكبرى ، وعرض دقيق لمشكلة السودان ونيجيريا ، وائتلاف الاسلام والمسيحية في الحبشة وتاريخ نهر النيل ، ووصف شيق لمنطقة « سد الجبل » في اعالي النيل وورشة « اسوان » و « الجزيرة » في السودان ، مع زيارة الى غزة ومخيمات اللاجئين الفلسطينيين واشادة بالخدمات التي قدمتها مصر لتلك المنطقة . كل ذلك في اسلوب شيق ونفس انساني رفيع وروح دعم وتأييد للنضال العربي